الإنصاف الأدبي

أ. د. السيد عبدالحليم محمد حسين

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإنصاف الأدبى

لا أريد أن أبحث تحت هذا العنوان عن الإنصاف الذى يفسر بالعدل، ويوصف به من ينتصب للحكم بين المتخاصمين، فقد سبق لنا أن تعرضنا لهذا الموضوع فى مقال «القضاء العادل فى الإسلام» كما أنى لا أريد البحث عن الإنصاف الذى هو خلق يحمل صاحبه على أن يعطى الحقوق المادية من نفسه، كأن يعرف الرجل أن هذا المال أو المتاع حق لفلان، فيكف يده أو يرفعها عنه من تلقاء نفسه، لا يخشى لومة لائم، فللحديث عن الإنصاف الذى هو تبرئة الذمة من الحقوق المادية مقام غير هذا المقام، وإنما الغرض البحث عن ضرب خاص من ضروب الإنصاف، وهو أن يقول الرجل صوابًا فتعترف بأنه محق أو يحرز خصلة حمد فتقر بها ولا تنازع من يصفه بها، ولا أجد مانعًا من أن أسمى هذا النوع من الإنصاف «الإنصاف الأدبى» ويقابله من الأخلاق المذمومة «العناد» وهو جحود الحق، ورده مع العلم بأنه حق.

والإنصاف الأدبى من الخصال التى لا ترسخ إلا فى نفس نبتت فى بيئة صالحة، وارتضعت من ثدى التربية الصحيحة لبنًا خالصًا، والجماعة التى تفقد هذا الخلق تفقد جانبًا عظيمًا من أسباب السعادة، ويدخلها الوهن بعد الوهن حتى تتفرق أيدى سبا، وعليك الإنصات وعلينا البيان:

بين الأخلاق روابط، وكثيراً ما يكون بعضها وليد بعض، كالعدل قد يكون وليد القناعة، وكالشجاعة قد تكون وليدة عزة النفس، وكالجبن قد يكون وليد الطمع، وكذلك خلق العناد وعدم الإذعان للحق قد يكون وليد الحسد، وقد ينشأ عن طبيعة الغلو فى حب الذات، وللغلو فى حب الذات فرعان: حب الانفراد بالفخر، وإيثار النفس على كل شىء حتى الحق، فالحاسد أو الحريص على الانفراد بالفخر هو الذى يسمع الرجل يقول صوابًا، فيقول له: أخطأت، أو يسمع الثناء عليه ببعض ما أحرز من خصال، فيقول للمثنى عليه: كذبت. وإيثار النفس على

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الحق هو الذى يحمل الرجل على التعصب لرأيه والدفاع عنه وهو يعلم أنه فى خطأ مبين.

فمن أراد أن يطبع ناشئًا على خلق الإنصاف نقب على علتى الحسد والغلو فى حب الذات، فإن وجد لهما فى نفس الناشئ أثرًا، راضه بالحكمة والموعظة الحسنة حتى يتهيأ الناشئ لأن يكون على هذا الخلق العظيم، أعنى خلق الإنصاف.

وإذا كان منشأ الحسد قلة ملاحظة أن النعمة تصل إلى صاحبها من علام الغيوب، وهو لا يرسلها إلا لحكمة، فإن من وسائل علاج هذا الداء تلقين الناشئ أن النعم مادية أو أدبية إنما ينالها الناس بمشيئة العليم الحكيم؛ وإذا كان منشأ الحرص على الانفراد بالفخر هو الغلو فى حب الذات، كان على المربى تهذيب عاطفة حب الذات فى نفس الناشئ حتى تكون عاطفة معتدلة.. تجلب له الخير، وتأبى له أن ينال غيره بمكروه.

وإذا شفى الناشئ من مرض الحسد، وخلص من لوثة الغلو فى حب الذات، لم يبق بينه وبين فضيلة الإنصاف إلا أن تعرض عليه شيئًا من آثارها الطيبة، وتذكره بما يدرك المحرومين منها والمستخفين بها من خسار وهوان.

وقلة الإنصاف تبعد ما بين الأقارب أو الأصدقاء، وكم من تجاف نشأ بين أخوين أو صديقين، وإنما نشأ من جحود أحدهما بعض ما يتحلى به الآخر من فضل، أو من رده عليه رأيًا أو رواية وهو يعلم أنه مصيب فيما رأى أو صادق فيما روى، قال الحكيم العربى:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة بين الرجال وإن كانوا ذوى رحم

ومتى شعر الرجل من آخر بإنكار شيء من فضله، أو بتعسفه فى معارضة رأيه، رآه غير موضع للصحبة والمعاشرة، وربما وقع فى ظنه أن الراحة فى عدم لقائه.

قلة الإنصاف تجر إلى التقاطع، والإنصاف يدعو إلى الألفة، ويؤكد صلة الصداقة فإذا كنت فى مجلس، فقرر الرجل رأيًا واضح الحجة، فغلبك ما فى نفسك، وحاولت أن تصوره للناس خطأ، فقد ألقيت بينك وبينه عداوة، فإن خضعت

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لحجته وأعربت له عن استحسان رأيه، فقد مددت بينك وبينه سببًا من أسباب الألفة، إذ يشعر من إنصافك أنك لا تحمل له ضغنا، ولا تكره له أن ينال حمدًا؛ فإن سبق هذا الإنصاف خصومة شعر بأنك خصم شريف، فيسعى لأن تنقلب الخصومة سلمًا ويتبدل التقاطع ولاء.

وقلة الإنصاف تسقط احترامك من العيون، فإن من يراك تهاجم الآراء المؤيدة بالحجة، قد يحمل هذا الهجوم على قصر نظرك وعجزك عن تمييز الباطل من الحق، فإن حمله على أنك تهاجمها كراهة أن تكسب صاحبها حمدًا، وقع فى نفسه أنك تتمنى لغيرك زوال النعمة، أو أنك حريص على الانفراد بخصال الحمد، فإن ذهب فى تأويل إبايتك لقبول الحق إلى أنك تموه على الناس حتى لا ينسبوا إليك نقيصة الخطأ، علم ما لم يكن يعلم من إيثارك النفس على الحق، ولا احترام لمن لا يدرك الآراء المؤيدة بالحجة، أو يتألم من أن يرى غيره فى نعمة، أو من يعمل للانفراد بالحمد من طريق التعسف والعناد، أو من يدافع عن نفسه نقص الخطأ بمحاولة قتل الحق.

قلة الإنصاف تسقط احترامك من القلوب، والإنصاف يزيد احترامك في القلوب مكانة، ذلك لأن إنصافك للرجال يدل على صفاء سريرتك ونقائها من أن تكون قد حملت شيئًا من دنس الحسد أو حام بها الغلو فى حب الذات.

نقرأ فى كتب الأدب أن منذر بن سعيد البلوطى دخل مصر، وحضر مجلس أبى جعفر النحاس وهو يملى أخبار الشعراء، فأنشد أبو جعفر أبيات مجنون ليلى هكذا:

خليلى هل بالشام عين حزينة ... تبكى على نجد لعلى أعينها

قد أسلمها الباكون إلا حمامة ... مطوقة باتت وبات قرينها

تجاوبها أخرى على خيزرانة ... يكاد يدنيها من الأرض لينها

فأراد منذر أن ينبهه على أن قراءة «باتت وبات» من عجز البيت الثانى بالتاء المثناة خطأ، فقال: يا أبا جعفر ماذا أعزك الله باتا يصنعان؟ فقال أبو جعفر: كيف تقول أنت يا أندلسى؟ قال منذر: «بانت وبان قرينها».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كيف يكون مقام أبى جعفر فى نفسك لو قص عليك التاريخ أنه تلقى تصحيح منذر بن سعيد بالارتياح، وقال له: أنا أخطأت، وأنت أصبت؟ لاشك أنك تحمل له من الاحترام فوق ما كنت تحمل، ولكن منذر بن سعيد يقول: إن ابن النحاس سكت ومازال يستثقلنى، ثم عاد بعد حين إلى ما كنت أعرفه منه يعنى من الإقبال والحفاوة.

وقلة الإنصاف تحول بين الرجل وبين أن يزداد علمًا؛ فمن لم تنصفه من أهل العلم وجد فى نفسه مثبطًا عن أن يسرع إلى إفادتك أو يفيض القول فى مذاكرتك، فيفوتك حظ من العلم لولا عدم إنصافك لازددت به قوة فى الفهم وسعة فى العلم، وقد يكون من أثر جحودك لفضل الرجل أن تقل رغبتك فى ملاقاته والتزود من آرائه أو رواياته، وكم وصل الرجل بإنصافه إلى علم وأدب جم. قال أبو إسحاق الزجاج: لما قدم المبرد بغداد آتيته لأناظره؛ وكنت أقرأ على أبى العباس ثعلب، وأميل إلى قول الكوفيين، فعزمت على إعنات المبرد، فلما فاتحنى ألجمنى بالحجة وطالبنى بالعلة؛ وألزمنى إلزامات لم أهتد إليها، فتبينت فضله واسترجحت عقله وجددت فى ملازمته.

فلو كان أبو إسحاق من أولئك الذين يجمح بهم التعصب للأشياع أو المذهب حتى ينبذوا الإنصاف ناحية، لما اعترف بفضل المبرد وقد فاتحه بالمناظرة عازمًا إعناته، ولفاته العلم الذى غنمه بالجد فى ملازمته.

وقلة الإنصاف تحدث فى العلم فسادًا كبيرًا، ذلك لأن من لا يقدر الإنصاف قدره، قد يرى بعض الآراء العلمية الصحيحة قد صدرت من شخص لا يرتاح هو لأن تكون قد صدرت منه، فيقابلها بالرد والإنكار؛ وقد تكون له براعة بيان، فيصرفها فى تشويه وجه الحق وهو يعلم أنه حق، فيظهر الجهل على العلم ولو فى فئة قليلة أو دائرة صغيرة.

قلة الإنصاف تخذل العلم، وتطمس شيئًا من معالمه، والإنصاف يؤيد العلم، ويجعل موارده صافية سائغة، ولو أخذ الإنصاف حظه من نفوس جميع الباحثين

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عن الحقائق لقلت مسائل الخلاف فى كل علم، فيكون حفظ العلوم أيسر، ومدة دراستها والرسوخ فيها أقصر.

نقرأ فى تاريخ العلامة محمد بن عبدالسلام أن ابن الصباغ اعترض عليه فى أربع عشرة مسألة، فلم يدافع عن واحدة منها، بل أقر بالخطأ فى جميعها.

ومن النواحى التى غفل فيها بعض الناس عن فضيلة الإنصاف، فكانت منبت فساد غير قليل، ناحية التعصب للمذهب تعصب من لا يسمع ولا يرى، ولصاحب المذهب أو المقتدى به أن يبسط القول فى تقرير أصوله وإيراد حججه، وله أن يناقش أقوال مخالفيه وأدلتهم، فيردها، ويصفها بالخطأ إذا شاء، ومن الإنصاف أن يناقشها استبانة للحق، ولا يصفها بالخطأ إلا بعد أن تأذن له الحجة فى وصفها، والعالم الذى يطول نظره فى أقوال الأئمة يشهدهم كيف يرمون إلى غرض واحد هو الحكم المطابق للحق، فيمتلئ قلبه باحترامهم، ويقف فى حدود الإنصاف عند درسه لمسألة من المسائل التى جرى فيها اختلافهم، قال الإمام الشافعى: الظرف فى الوقوف عند الحق كما وقف.

لا يصعب على النفوس التي فيها بقية من خير أن تنصف الرجل يبتكر رأيًا، أو ينهض لعمل، فتعترف لرأيه بالإصابة، أو لعمله بالإجادة، والإنصاف الذى قد تجمع عنه نفسك كثيرًا أو قليلاً، أن تقول قولاً تظنه صوابًا، أو تعمل عملاً تحسبه حسنًا فينقده آخر بميزان العلم الصحيح، ويريك أنك قد قلت خطأ، أو عملت سيئًا، ففى مثل هذا المقام قد تجد فى نفسك كراهة للاعتراف بالخطأ فى القول أو الإساءة فى العمل؛ فإن كنت على ذكر من فضيلة الإنصاف وما تؤتيه من ثمار طيبة لم تلبث أن تكظم هذه الكراهة، ولا تجد فى نفسك حرجًا من أن تقول للناس: إنى قد أخطأت فى قولى، أو أسأت فى عملى، وتاريخ علماء الإسلام مملوء بقصص الذين رجعوا عن آرائهم بعد محاورات أو مناظرات ظهر لهم منها أن الحق فى جانب من دارت بينهم وبينه المحاورة أو المناظرة. ومما يروى فى هذا الصدد أن مناظرة جرت بين الإمامين: مالك بن أنس، وأبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

شبكة الألوكة

فى مقدار الصاع الذى تؤدى به زكاة الفطر، فقال مالك: هو خمسة أرطال وثلث، وكان أبو يوسف يذهب إلى أنها ثمانية أرطال، فاحتج عليه مالك بالصيعان الموجودة لذلك العهد عند أبناء المهاجرين والأنصار بالمدينة، فرجع الإمام أبو يوسف إلى ما قاله الإمام مالك.

لا يصعب على الرجل أن ينصف قريبًا أو صديقًا، بل لا يصعب عليه أن ينصف من لا تربطه به قرابة أو صداقة، ولا تبعده منه عداوة، والإنصاف الذى قد يحتاج فيه إلى مراوضة النفس كثيراً أو قليلاً، أن يبدى بعض أعدائه رأيا سديداً، أو يناقشه فى رأى مناقشة صائبة، فهذا موطن تذكير النفس بأدب الإنصاف، وإنذارها ما يترتب على العناد من إثم وفساد.

ومن الإنصاف الذى يدل على الرسوخ فى الفضيلة أن يتحدث الرجل عن خصمه فينسب إليه ما يعرفه له من فضل. أنشد فى مجلس الإمام على بن أبى طالب قول الشاعر:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه   إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

كأن الثريا علقت بجبينه   وفى خده الشعرى وفى الآخر البدر

فلما سمعها على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال: هذا طلحة بن عبيدالله، وكان السيف ليلتئذ مجرداً بينهما.

يسهل على الرجل أن ينصف من هو أكبر سنًا منه، أكثر مما يسهل عليه أن ينصف قرينه، ذلك لأن أكبر عائق عن الإنصاف التحاسد.. وحسد الإنسان لأقرانه أكبر وأشد من حسده للمتقدمين عليه فى السن ويسهل عليه أن ينصف أقرانه أكثر مما يسهل عليه أن ينصف من هو أحدث سنًا منه، إذ يسبق إلى ظنه أن ظهور مزية لمن هو أحدث عهداً منه، قد تفضى إلى أن يكون ذكره أرفع، وفضل القرين على بعض أقرانه شائع أكثر من فضل المتأخر على المتقدم، وشيوع الشىء يجعله أهون على النفس مما هو أقل شيوعًا منه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فينبغى للإنسان أن يتيقظ للأحوال التى تتقوى فيها داعية العناد، ويعد للوقوف عند حدود الإنصاف، ومقاومة تلك الداعية ما استطاع من قوة.

ويقص علينا التاريخ أن فى الأساتذة من يحرص على أن يرتقى تلاميذه فى العلم إلى الذروة، ولا يجد فى نفسه حرجًا من أن يظهر عليه أحدهم فى بحث أو محاورة. يذكرون أن العلامة عبدالله الشريف التلمسانى كان يحمل كلام الطلبة على أحسن وجوهه، ويبرزه فى أحسن صوره، ويروى أن أبا عبدالله هذا كان قد تجاذب مع أستاذه أبى زيد بن الإمام الكلام فى مسألة، وطال البحث اعتراضًا وجوابًا حتى ظهر أبو عبدالله على أستاذه أبى زيد، فاعترف له الأستاذ بالإصابة، وأنشد مداعبًا:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

ومن نظر بروية إلى أن فضل العلم من جهة أنه وسيلة إلى إصلاح العمل وإسعاد البشر، وكان مع هذا النظر ناصحًا لأمته، وقف عند حد الإنصاف، لم ينحرف عنه إجابة لداعى الحسد؛ أو انسياقًا مع حب العلو فى الأرض ولو بغير حق.

أخذ رجال بأدب الإسلام فرسخوا فى فضيلة الإنصاف على قدر صفاء سرائرهم واحترامهم لأصول الدين وأحكامه؛ وقد مثل الصحابة – رضى الله عنهم – الإنصاف فى أكمل صورة. بدا لعمر بن الخطاب مرة أن يضع للمهور حدًا فخطب قائلاً: «لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية فمن زاد ألقيت زيادته فى بيت المال» فقامت امرأة من صف النساء، فقالت: ما ذاك لك، قال: ولم؟ قالت: لأن الله عز وجل يقول: ﴿ **وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا** ﴾ فقال عمر: «امرأة أصابت ورجل أخطأ» ولو كان عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – من أولئك الذين يألمون من أن ينسب إليهم نقص أكثر من ألمهم لتحريف آية عن موضعها، أو استبدال خاطر بشرى بحكم إلهى، لما عدم وجهًا من أمثال تلك الوجوه التى يصورها المخادعون أو ضعفاء الإيمان تعصبًا لآرائهم المخالفة للقرآن.

اختلف ابن عباس وزيد بن حارثة – رضى الله عنهما – فى مسألة من باب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحيض، فقرر ابن عباس حكمًا؛ وخالفه زيد فرأى فيها رأيا آخر، فقال له ابن عباس: سل نُسيَّاتك: أم سليمان وصويحباتها، فذهب زيد فسألهن، ثم جاء وهو يضحك فقال لابن عباس: القول ما قلت. وموضع العبرة من هذه القصة أن زيدًا تمسك برأيه في مخالفة ابن عباس حتي استبان له أن الحق مع ابن عباس، فلم يجد في نفسه حرجًا من أن يرجع إليه ضاحكًا ويقول له: القول ما قلت.

ويروى أن الإمام على بن أبى طالب – رضى الله عنه – تكلم فى مسألة، فقال له أحد الحاضرين: ليس الأمر كذلك يا أمير المؤمنين، ولكنه كذا وكذا، فقال على: أصبت وأخطأت، وفوق كل ذى علم عليم. وعشاق الأخلاق الكريمة يجلون الإمام عليًا لهذا الإنصاف إجلالهم له عندما يفتى فيصيب الحق أو يعظ فينطق بالحكمة.

وقد اقتدى بالصحابة فى هذا الخلق الكريم من جاء بعدهم من كبار العلماء، وهذا الإمام الشافعى – رضى الله عنه – يقول: «ما ناظرت أحدًا على الغلبة، ووددت إذا ناظرت أحدًا أن يظهر الحق على يديه».

والراسخون فى فضيلة الإنصاف لا يبالون أن يكون رجوعهم عن الخطأ أمام من خالفهم وحده، أو بمحضر جمع كبير لم يشعروا بالخلاف، ولا بخطأ المخطئ أو إصابة المصيب. وها هو ذا التاريخ يحدثنا عن رجال من علماء الإسلام بلغوا هذه الغاية من الإنصاف، قال عبدالرحمن بن مهدى: ذاكرت القاضى عبيدالله بن الحسين فى حديث وهو يومئذ قاضٍ، فخالفنى فيه فدخلت عليه بعد وعنده الناس سماطين (١)، فقال لى: ذلك الحديث كما قلت أنت؛ وأرجع أنا صاغرًا، فعبيدالله ابن الحسين قد أحسن إلى نفسه إذ أخذها بفضيلة الإنصاف، وأحسن إلى الناس إذ علمهم كيف يعترفون بالخطأ إذا أخطئوا، ولا يتلبثوا فى الرجوع إلى الحق ولو عظمت مناصبهم، وعلت أقدارهم.

العناد قبيح، ويشتد هذا القبح بمقدار ظهور الحجة على الرأى الذى تحاول رده على صاحبه، فمتى كانت الحجة أظهر كان العناد أقبح؛ والإنصاف جميل، ويكون

---

(١) سماط القوم صفهم، يقال قام القوم حوله سماطين أى صفين.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جماله أوضح وأجلى حيث يكون فى حجة الرأى الصائب شىء من الخفاء، وحيث يمكنك أن تتحيز لرأيك وتهيّئ كثيراً من الأذهان لقبوله.

وقد ينقل التاريخ شذرات من حوادث المنصفين لمن خالفهم فى أمر، أو المعترفين لبعض خصومهم بفضيلة فتهتز فى نفوس قرائها عاطفة احترام لمن أقر بالخطأ أو اعترف لخصمه بخصلة حمد، وربما كان إكبارهم لمن أقر بالخطأ فوق إكبارهم لمن خالفه فى الرأى فأصابه، وربما كان إكبارهم لمن شهد لخصمه بمكرمة فوق إكبارهم للشخص المشهود له بتلك المكرمة، وسبب هذا الإكبار عظمة الإنصاف، وعزة من يأخذ نفسه بها فى كل حال، قال ابن وهب: سمعت مالك بن أنس يقول: ما فى زماننا شىء أقل من الإنصاف.

وإذا لم ينصفك الرجل، فرد عليك الحق بالشمال واليمين، أو جحد جانباً من فضلك وهو يراه رأى العين، فلا تكن قلة إنصافه حاملة لك على أن تقابله بالعناد، فترد عليه حقاً، أو تجحد له فضلاً، واحترس من أن تسرى لك من خصومك عدوى هذا الخلق الممقوت، فيلج فى نفسك وينشط له لسانك أو قلمك وأنت تحسبه من محاربة الخصوم بمثل سلاحهم. كلا. لا يحارب الرجل خصومه المبطلين بمثل الاعتصام بالفضيلة، ولاسيما فضيلة كفضيلة الإنصاف تدل على نفس مطمئنة، ونظر فى العواقب بعيد، ومن وجد فى خصمه فضائل، حصر محاربته فى الأمر الذى هو منشأ الخصومة، وترك تلك الفضائل قارة فى مكانها بادية لمن أراد أن يقتدى بها.

وإذا كان الإنصاف فضيلة ترتفع بها أقدار الرجال، وتتسع بها دوائر العلوم، وتصفو بها موارد الآداب، ويشتد بها حبل الاتحاد، وينتظم بها شأن الاجتماع، كان من واجب أولياء الأطفال وأساتذة الأخلاق، ودعاة الإصلاح، أن يجعلوا له من تربيتهم وتعليمهم ودعوتهم نصيباً، يكفى لأن نرى أنديتنا ومؤلفاتنا وصحفنا نقية من إنكار الحق، بريئة من جحود الفضل.

○○○○○

شبكة الألوكة - قسم الكتب

هذا الكتاب منشور في